

(ادعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ اعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ)

بقلم : الامام المحقق المولى محمد الطاهر ابن عاشور

هذه الآية واردة مورد البيان لمعنى التي قبلها وهي قوله تعالى :

(ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين)

لان اتباع ملة ابراهيم يكون بالعمل والقول ، فالعمل هو اقتداء الرسول بها في خاصة نفسه والقول دعاؤه الناس اليها كما هو مقتضى الرسالة ولان ابراهيم دعا الناس الى نبذ الشرك وحاج قومه فيه واذن في الناس بالحج . فلا جرم اشتمل اتباع ملة ابراهيم على حالين احدهما الدعوة الى الله وهو غرض الآية ..

وكانت الجملة المقتضية لها وهي جملة ادع الى سبيل ربك بالحكمة الى اخرها منزلة منزلة بدل الاشتمال من جملة ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم ولذلك فصلت عنها ولم تعطف عليها لوقوعها موقع مفرد يمتنع اقترانه بالعطف .

ومخاطبة الرسول عليه السلام بصيغة الامر بالدعوة الى سبيل ربه في حين هو داع الى الله من قبل دليل على ان صيغة الامر مستعملة في طلب الاستمرار على الدعوة لا يصده عنها شيء على حد قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله . ذلك ان المشركين

لم يغادروا شيئا من شانه تثبيط النبي صلى الله عليه وسلم عن معاودة دعوتهم لى الايمان الا أتوا به من تكذيب وسخرية وتهديد واختلاق وبهتان كما حكيت احوالهم في تضاعيف القرءان وفي هذه السورة من قوله تعالى «ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر» يظنون ان ذلك كله يحجم النبي عن دعوتهم لانهم بجهلهم يجملون موازين النفوس العالية على مقياس موازين نفوسهم وقد كفروا بان الرسول مضطلع بالحق الذي ارسله به ربه حتى يبلغ رسالته فلذلك ظنوا ما ياتون به من الخزعبلات مثبطا له. وسبيل الله مجاز لكل عمل من شانه ان ينال به عامله رضى الله تعالى فان الشيء الذي هو سبب لنوال رضى الله اشبه الطريق الموصل الى المرغوب في انه يعقبه نواله واستعير اسم السبيل للسبب واضافته الى اسم الجلالة باعتبار ان الله نبه عليه وامر بالتزامه وفي هذه الاضافة تجريد للاستعارة وبذلك صار علما بالغلبة على كل من دين الاسلام كما في قوله تعالى :

(ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله)

وعلى القتال لتاييد الاسلام كما في قوله تعالى :

(وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله)

والمراد هنا هو الاسلام بقرينة المقام وقوله ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين .

والمقصود من امر الرسول باستمراره على الدعوة الى الدين الاسلامي تثبيته على ذلك وان لا يوئسه من اهتداء المشركين ما يراه من افانين بهتانهم واختلاقهم واذاهم للمسلمين وتصلبهم في الشرك .

وحذف مفعول ادع اما لقصد التعميم لان دعوة الاسلام عامة لكل احد فتشمل دعوته المشركين الذين هم المقصود الاول من المقام . واما لان الفعل قد نزل منزلة اللازم اي ليكن منك الاستمرار على الدعوة المعهودة لان المقصود الدوام على الدعوة لا تعيين المدعوين لان ذلك امر معلوم من حال الدعوة . واما لان المفعول معلوم بقرينة قوله وجادلهم . والباء في قوله بالحكمة للملابسة اي لتكن دعوتك ملابسة للحكمة والموعظة كما قالوا في الدعاء للمعرس بالرفاء والبنين اي اعرست ملابسا للرفاء والبنين ومعنى الملابسة يقتضى أن لا تخلو الدعوة عن هاتين . فالحكمة : المعرفة المحكمة اي المتقنة اي الصائبة النافعة فلا تطلق الحكمة الا على المعارف الحقة التي لا يتطرقها الخطأ ،

ولذلك عرفت الحكمة بانها معرفة حقائق الاشياء على ما هي عليه مما تبلغه الطاقة البشرية بحيث لا تلتبس الحقائق المتشابهة بعضها مع بعض ولا تغلط في العلل والاسباب وهي اسم جامع لكل كلام يراعى فيه اصلاح حال الناس واعتقادهم ولها شعب كثيرة والمهم منها في نظر الدين اربعة امور أحدها معرفة الله حق معرفته وهو علم الاعتقاد الصحيح ويسميه قدماء اليونان العلم الالاهي او ما وراء الطبيعة ويعدونه العلم الاعلى من علوم الحكمة النظرية . الثاني : ما يصدر عن علم به كمال الانسان وهو علم الأخلاق وعرفه المتقدمون بانه التخلق بصفات الله بحسب الطاقة البشرية اي بما يليق بحال البشر من معاني صفات الله ؛ الثالث : علم تهذيب العائلة وسماه الاقدمون علم تدبير المنزل وهو داخل في احكام معاشرة الاهل في الشريعة ؛ الرابع تهذيب الامة وصلاح شئونها وسمي علم السياسة المدنية وهو علم تدبير المدينة وهو مندرج في احكام الامامة . ودعوة الاسلام اصولا وفروعا لا تخلو عن شعبة من شعب هذه الحكمة .

واما الموعظة فهي القول الحق الذى يلين نفس المقول له فيقلع عن عمل الشر او يقدم على عمل الخير ، وفي حديث العرباض بن سارية « وعظنا رسول الله موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون »

وبهذا يظهر ان الموعظة اخص من الحكمة لان الوعظة لا تكـون الا حكمـة اذ يحصل بها اصلاح الموعوظ . قال تعالى : ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة ، بعد ان ذكر أوامر ونواهي في قوله : وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه ، الايات من سورة الاسراء وكلها موعظة ، ومعنى وصف الموعظة بالحسنة ان تكون متصفة بالحسن في نوعها فان تفاضل افراد النوع بتفاضل احتوائها على الصفاة المقصودة من نوعها . ووصف الموعظة بالحسنة دون وصف الحكمة بذلك لان الموعظة لما كان غالب المقصود منها ردع النفس عن الاعمال السيئة كانت مظنة لصدور اغلاظ من الواعظ وحصول انكسار في خاطر الموعوظ فامر الله بان يتوخى فيها ان تكون حسنة حملا للواعظ على الإانـة القـول وترغيب الموعوظ في الخير ولذلك لم تعر آية وعيد في القرءان عن ان تحف بآية بشاره وقد قال تعالى لموسى وهارون

(اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يذكر او يخشى)

وليس المراد ان الحكمة لا تكون حسنة فقد علمت ان الموعظة من

انواع الحكمة وقد قال النبيء صلى الله عليه وسلم ان الله كتب الاحسان على كل شي واذاقد كانت دعوة الاسلام يتلقاها المنصفون فيلوح لهم الحق فيؤمنون به ويتلقاها المتكبرون فيغلب عليهم التصلب فيما دون ويجادلون جدال المتعنتين وكان ذلك من شانه ان يغضب الرسول اعضب الله امر رسوله بالدعوة الى سبيله بان امره بالمجادلة الحسنة بقوله : وجادلهم بالتى هي احسن فضمير جادلهم عائد على المشركين بقرينة المقام لظهور أن المسلمين لا يجادلون رسولهم فان الامر بالمجادلة ليس امرا بإيجادها ولكنه امر بان تكون حسنة فالمقصود من هذا الامر وصف المامور به وهذا سر تغيير الاسلوب اذ لم يعطف اسم المجادلة على اسمي الحكمة والموعظة ولكن جيء بامر المجادلة عقب الامر بالدعوة استكمالا لاداب ذيول الدعوة وتوابعها .

فقد كان المشركون يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم قصدا للاوحام والتعجيز كما اشار الله بقوله تعالى

(وان جادلوك فقل الله اعلم بما تعملون)

وقوله (فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعني) فمن ذلك قولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا . وكما روي انه لما نزل قوله تعالى (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية قال عبد الله بن الزبعري لاخصمن محمدا ثم جاءه بعد ذلك فقال يا محمد قد عبد عيسى وعبدت الملائكة فهل هم حصب لجهنم فارشده رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قوله تعالى :

(ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون) (١)

والمجادلة والجدال والجدل المراجعة بالقول في امر او راي . للاقناع بالرجوع عنه الى ما يطلبه المجادل واذ قد كانت المجادلة المذكورة هنا من ذيول الدعوة كانت لا محالة متلبسة بالحكمة والموعظة اذ لا يعدو جدال النبيء اياهم عن هديهم الى طريق الحق وانما يكون ذلك بالحكمة والموعظة .

والباء في بالتي هي احسن متعلقة بجادلهم والتى صفة لمحذوف يعلم من المقام اذ التقدير بالمجادلة التى هي احسن . واسم التفضيل في قوله بالتى هي احسن يجوز ان

(١) اخرجه ابو داود في كتاب الناسخ والمنسوخ وابن المنذر وابن مردويه والطبراني عن ابن عباس

يكون غير مراد منه التفضيل على مجادلة أخرى بل المراد منه المبالغة في كونها حسنة فيكون مسلوب المفاضلة كقوله (رب السجن احب الى مما يدعونني اليه) اي محبوب الي دون ما يدعونني اليه . ويجوز ان يكون معناه التفضيل على ما يجادل به المشركون النبي صلى الله عليه وسلم اذ كان فيه خلط بين حسن وفضاضة فهذا الوليد بن المغيرة لما قرا عليه النبيء صلى الله عليه وسلم بعضا من القرءان وقال له هل ترى بما اقول باسا قال: لا والدماء. وهذا عبد الله بن ابي يقول للنبيء صلى الله عليه وسلم ايها المرء ان كان ما تقول حقا فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه اياه ومن لم ياتك فلا تغته ولا تاته في مجلسه بما يكره منه فامر النبيء ان يجادلهم المجادلة التي هي احسن من مجادلتهم ونظير هذه الاية قوله تعالى :

(ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم)

ويدخل في التي هي احسن مقابلة جدالهم الفظ بجدال غير صريح في الغلظة مثل قوله: وانا واياكم لعلى هدى او في ضلال مبين ، وقوله « وان جادلوك فقل الله اعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » او بما هو احسن من ذلك من لين القول كما في قوله تعالى في جواب اهل الكتاب « وقولوا ءامنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والاهنا والاهكم واحد ونحن له مسلمون ».

وقد اشار بعض علمائنا الى ان هذه الآية جمعت الاقيسة المحقة من الصناعات الخمس المذكورة في علم المنطق وهي: البرهان والخطابة والجدل دون السفسطة والشعر لانهما لا يليقان باقامة الناس على الحق فما نحصر الاستدلال

الحق في البرهان والخطابة والجدل ولذلك سمى حكماء الاسلام الصناعة الثالثة جدلا محاكاة المعنى في لغة اليونان . فالى الحكمة يرجع البرهان لانه يتالف من المقدمات اليقينية والى الموعظة ترجع الخطابة لانها تتالف من المقدمات المظنية لاستنادها الى غالب الاحوال وكافى بالغالب موعظة للمتعظ كقوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح ءاباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) وقد كان في الجاهلية يسمى نكاح المقت فاجرى هذا الوصف عليه في القرءان مبالغة في تحريمه وذلك استدلال خطابي فهو موعظة وهو ايضا موافق للحكمة .

قال الفخر ان الدعوة الى المذهب لا بد ان تكون مبنية على حجة والمقصود من ذكر الحجة اما تقرير ذلك المذهب في قلوب السامعين واما الزام الخصم وافحامه . أما القسم الاول فينقسم الى قسمين لان تلك الحجة اما ان تكون حجة يقينية مبراة من احتمال النقيض واما ان لا تكون كذلك بل تكون مفيدة ظنا ظاهرا فظهر انحصار الحجج في الاقسام الثلاثة اولها الحجة المفيدة علما يقينيا وهو المسمى بالحكمة وثانيها الامارات الظنية وهي الموعظة الحسنة وثالثها الدلائل التي القصد منها افحام الخصم وذلك هو الجدل وهو على قسمين لانه اما ان يكون مركبا من مقدمات مسلمة عند الجمهور وهو الجدل الواقع على الوجه الاحسن واما ان يكون مركبا من مقدمات باطلة يحاول قائلها ترويجها على المستمعين بالحيل الباطلة وهذا لا يليق باهل الفضل. انتهى كلامه وهو يشير الى ان الجدل الباطل يكون بالمقدمات السفسطائية او المقدمات الشعرية وقال في آخر كلامه «واعلم ان هذه المباحث تدل على انه تعالى ادرج في هذه الآية هذه الاسرار العالية الشريفة مع ان اكثر الخلق كانوا عنها غافلين» وينبغي ان يحمل كلامه على ان هذه التقسيمات منضوية تحت طرف الدعوة المذكورة في الآية انضواء على وجه التداخل بحيث ان كل قسم من الاقسام الثلاثة لا يخلو عن كونه مندرجا في احد طرق الدعوة وليس مراده ان كل طريق في الآية هو قسيم للطريق الآخر كما هو مراد المنطقيين لان تلك الحجج المذكورة في المنطق بعضها قسيم لبعض فالنسبة بينها التباين . وطرق الدعوة بعضها اخص وبعضها اعم فالنسبة بينها العموم والخصوص المطلق او الوجهي وتفصيله يفضي بنا الى تطويل . فذهنك في تفكيكه غير كليل

فهذه الآية قد اشتملت على اعجاز علمي بهذا الاعتبار وهو صنف من اعجاز القرءان كنا بيناه في مقدمات التفسير فمن سمعه فليكن من اهل التذكر والتذكير وبينا بعضه في مقالة المعجزات الخفية المنشورة في مجلة الهداية الاسلامية

والتخلق بالآية هو ان كل من يقوم مقاما من مقامات الرسول عليه الصلاة والسلام في ارشاد المسلمين يجب ان يكون سالكا طرائقها الثلاث والا كان منصرفا عن الآداب الاسلامية وان يخشى ان يعرض مصالح الامة للتلف وكذلك كان شان السلف في اقامة عقائد الامة واخلاقها فاصلاح الامة يتطلب ابلاغ الحق اليها بالحكمة والموعظة